زاد الداعية

غزوة بدر الكبرى.. دروس وعبر



الثلاثاء 27 أبريل 2021 06:41 م

بقلم: الشيخ حجازي إبراهيم

كانت في اليوم السابع عشر من رمضان للسنة الثانية من الهجرة، وسببها أن النبي- صلى الله عليه وسلم- ندب أصحابه للتعرض لقافلة قريش العائدة من الشام إلى مكة، ولم يكن يريد قتالاً، ولكن القافلة التي كان يقودها أبو سفيان نجت بعد أن كان أرسل إلى قريش يستنفرها لحماية القافلة، فخرجت قريش في نحوٍ من ألف مقاتل، منهم ستمائة دارع (لابس للدرع) ومائة فرس عليها مائة درع سوى دروع المشاة، وسبعمائة بعير، ومعهم القيان يضربن بالدفوف، ويغنين بهجاء المسلمين.

أما المسلمون فكانت عدتهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلاً، وأكثرهم من الأنصار، وكان معهم سبعون جملاً، وفرسان أو ثلاثة أفراس فحسب، وكان يتعاقب النفر اليسير على الجمل الواحد فترةً بعد أخرى.

وقبل أن يخوض رسول الله المعركة أراد أن يستشير أصحابه- وخاصةً الأنصار- في خوض المعركة، فأشار عليهم المهاجرون بخوضها، وتكلَّموا خيرًا، ثم علم الأنصار أنه يريدهم، فقال له سعد بن معاذ- وهو سيد الأنصار جميعًا-: يا رسول الله، قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلَّف منا رجل واحد، ما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، وإنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسِر بنا على بركة الله، وقال غيره مثل ذلك، فَسُرَّ الرسول- صلى الله عليه وسلم- لذلك، وقال: "سيروا على بركة الله، وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، إما العير، وإما النفير".

ثم سار الرسول- صلى الله عليه وسلم- حتى وصل أدنى ماء من بدر فنزل به، فقال الحباب بن المنذر: يا رسول الله! هذا منزل أنزلكه الله تعالى لا تتقدمه ولا تتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال الرسول- صلى الله عليه وسلم- "بل هو الرأي والحرب والمكيدة"، فأشار عليه الحباب بن المنذر أن يسير إلى مكان آخر هو أصلح وأمكن للمسلمين من قطع ماء بدر عن المشركين، فنهض الرسول- صلى الله عليه وسلم- وأصحابه حتى وصلوا إلى المكان الذي أشار به الحباب، فأقاموا فيه، ثم أشار سعد بن معاذ أن يُبنى للرسول- صلى الله عليه وسلم- عريشٌ وراء صفوف المسلمين، فإن أعزهم الله كان ما أحب، وإلا جلس على ركائبه ولحق بمن في المدينة، فقد تخلَّف عنا أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبًّا منهم، ولو ظنوا أنك تلقَى حربًا لما تخلَّفوا عنك، فدعا له النبي-

صلى الله عليه وسلم- وأمر أن يبنى له العريش، ولما التقى الجمعان، أخذ الرسول يسوِّي صفوف المسلمين، ويحرِّضهم على القتال، ويرغبهم في الشهادة، وقال: "والذي نفسي بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابرًا محتسبًا، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة"، ورجع إلى عريشه ومعه أبو بكر، ويحرسه سعد بن معاذ متوشِّحًا بسيفه، وأخذ الرسول- صلى الله عليه وسلم- في الدعاء، ومن دعائه: "اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه العصابة (المؤمنين المحاربين) لا تُعبد في الأرض"، وأطال في سجوده حتى قال له أبو بكر: حسبك؛ فإن الله سينجز لك وعدك، ثم حَمِي القتال، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين، وقد قتل من المشركين نحو سبعين، فيهم أشركهم أبو جهل وبعض زعمائهم، وأُسِر منهم نحو سبعين، ثم أُمر بدفن القتلى جميعًا، وعاد إلى المدينة، ثم استشار أصحابه في أمر الأسرى، فأشار عليه عمر بقتلهم، وأشار عليه أبو بكر بفدائهم، فقبل الرسول- صلى الله عليه وسلم- مشورة أبي بكر، وافتدى المشركون أسراهم بالمال.

الدروس والعبر

في شهر رمضان كانت غزوة بدر، وهي الوقعة العظيمة التي فرق الله تعالى فيها بين الحق والباطل، وأعز الإسلام وجنده، ودمغ الكفر وأهله، وفي بدر كانت الآيات الكثيرة والبراهين الشهيرة بتحقيق الله للمؤمنين ما وعدهم به من إحدى الطائفتين، وما أخبرهم به من ميلهم إلى العير دون النفير، ومجيء المطر عند الالتقاء فكان للمسلمين نعمةً وقوةً، وعلى الكفار بلاءً ونقمةً، وأمدَّ الله المؤمنين بجندٍ من السماء حتى سمعوا أصواتهم حين قالوا: أقدم حيزوم، ورأوا الرءوس ساقطةً من الكواهل من غير قطع ولا ضرب، وأثر السياط في أبي جهل وغيره ورمى الرسول- صلى الله عليه وسلم- المشركين بالحصى والتراب حتى عمَّت رميته الجميع، وغير ذلك كثير.

وسوف نلقي الضوء على بعض الدروس والعبر حول هذه الغزوة ليأخذ المسلمون منها الزادَ في مقارعة الأعداء ومنازلة الخصوم، في هذا الوقت العصيب الذي تداعى فيه الأكلة لغزو بلادنا، وتدنيس أرضنا، ونهب خيراتنا، على نهر من الدماء وتلال من الضحايا والأشلاء، متجاوزين بذلك كل المواثيق والأعراف الدولية، بل متجردين من كل معاني الإنسانية.

1- المسرة من المضرة

حين نودي على الجهاد وعد الله المؤمنين هذا الوعد: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ (الأنفال: من الآية 7).. والنفس البشرية دائمًا تميل إلى الراحة والدعة وتتوقى المشقة والضرر، ولو كان في الراحة الخسران وفي الضرر والمشقة النصر والتمكين وهذا ما حكاه القرآن، في هذا الوعد ويتأكد في قوله تعالى قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (216)﴾ (البقرة).

في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛ لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد. قال الحسن: لا تكرهوا الملمات الواقعة، فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أمر تحبه فيه عطبك، وأنشد أبو سعيد الضرير:

رب أمر تتقيه جرَّ أمرًا ترتضيه

خفي المحبوب منه وبدا المكروه فيه

ومن كلام الحكماء: "رب مسرة هي الداء، ومرض وهو الشفاء"، كما قال:

كم نعمة مطوية لك بين أنياب النوائب

ومسرة قد أقبلت من حيث ترتقب المصائب

فاصبر على حدثا ن دهرك فالأمور لها عواقب

ولكل كرب فرجة ولكل خالصة شوائب

قال أبو عبيدة: (عسى) من الله إيجاب، والمعنى عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة، وهو خير لكم في أنكم تَغلبون وتَظفرون وتَغنمون وتُؤجرون، ومن مات مات شهيدًا، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال، وهو شر لكم في أنكم تُغلبون وتُذلون ويذهب أمركم، ثم يقول القرطبي معقِّبًا: "وهذا صحيح لا غبار عليه، كما اتفق في

بلاد الأندلس، تركوا الجهادَ، وجبُنوا عن القتال، وأكثروا من الفرار، فاستولى العدو على البلاد، وأي بلاد؟! وأسَرَ وقَتَل وسبى واسترقَّ، فإنا لله وإنا إليه راجعون! ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته"!.

هذا الذي قاله الإمام القرطبي على الأندلس نقوله نحن عن فلسطين، وقد انتزعها بضعة ملايين من يهود، من أيدي مليار مسلم؛ وذلك لتركهم الجهاد، وقعودهم عن القتال، وإخلادهم إلى الأرض، وإتباعهم الشهوات؛ إذ الجهاد والقتال كريه إلى النفس وبغيض إلى القلب، بينما الترف والشهوات وزينة الأرض محبوبة إلى النفس ويهواها القلب، وغابت عنهم حقيقة هذه الآية، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفي بدر ﴿.. لِيُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8) ﴾ (الأنفال).

2- نأخذ بالأسباب ونوقن بأن الله هو الفاعل

من أساسيات العقيدة الأخذ بالأسباب كما أمر الله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (60)﴾ (الأنفال).

وبعد الإعداد والأخذ بالأسباب يكون المؤمن على يقين تامٍّ أن الله هو الفاعل الحقيقي، فإن شاء أمضى الأسباب، وجعل قوتها المؤثرة أقوى من قوة القائم بها، وإن شاء عطَّلها وسلبَها الأثر، وتأمَّل ذلك واضحًا في قول رب العالمين لنبيه تعقيبًا على غزوة بدر: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال: من الآية 17)، وفي غزوة الأحزاب: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (25)﴾ (الأحزاب)
فالمسلم وهو يواجه عدوَّه يشعر بمعية الله، وأنه هو الذي يدبِّر أمر المعركة وإليه يرجع الأمر كله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ (الأنفال: من الآية 12)، كما أن المسلم على يقين من أن النصر من عند الله، ينزله على الأصفياء من عباده والمخلَصين من أوليائه، والقرآن يحدثنا دائمًا أن النصر من عند الله في غزوة بدر.. ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (الأنفال: من الآية 10).

3- قوة الإيمان هي السلاح البتار

وإذا كان الله قد أمر بإعداد ما نستطيع من قوة لمواجهة الأعداء؛ فإن أعظم القوة الإيمان الصادق بالله، وعدونا لا يخشى في ميدان المعركة الأسلحة التي بأيدينا، ولكنه يخشى من سلاح الإيمان الذي يستمد قوته من الله؛ لأنه السلاح الذي لا يقهر واليقين الذي لا يغلب، ولا أدلَّ على ذلك في عصرنا الحاضر من تسخير الأعداء كل قواهم لاغتيال الشيخ أحمد ياسين، وهو القعيد الذي لا يحمل طلقةً، ومن قبله يتآمر العالم على اغتيال الإمام البنا- رحمهما الله- الأعزل من أي سلاح، وليس لذلك من سبب إلا الخوف من مخازن أسلحة الإيمان، فالمصلحون المخلصون والدعاة الصادقون يحملون بين جنباتهم مصانع إيمان تبث إنتاجها في قلوب من حولهم، ويمدون به كل جبان رعديد، فإذا به في الميدان أسدٌ هصورٌ، كما يبعث الإيمان بالأمل في قلوب اليائسين القانطين، فيتوجهون لملاقاة العدو، وكلهم يقين أن نصر الله آتٍ، وأن التمكين لهم قريب: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ (160)﴾ (آل عمران).

4- قوة الترابط بين المؤمنين

وبعد قوة الإيمان تأتي قوة الترابط بين المؤمنين والمحبة فيما بينهم والتآلف بين قلوبهم، وهذه منَّةٌ من الله ومن أعظم أسرار النصر: يقول الله تعالى: ﴿... هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63)﴾ (الأنفال).

وما أحسن بيان هذا المعنى في قول الإمام البنا: "ولقد كنت- ولا زلت- أقول للإخوان في كل مناسبة: "إنكم لن تُغلَبوا أبدًا من قلة عددكم، ولا من ضعف وسائلكم، ولا من كثرة خصومكم، ولا من تألُّب الأعداء عليكم، ولو تجمع أهل الأرض جميعًا ما استطاعوا أن ينالوا منكم، إلا ما كتب الله عليكم، ولكنكم تُغلبون أشدَّ الغلب، وتفقدون كل ما يتصل بالنصر والظفر بسبب إذا فسدت قلوبكم، ولم يصلح الله أعمالكم، أو إذا تفرقت كلمتكم، واختلفت آراؤكم.. أما ما دمتم على قلب رجل واحد متجه إلى الله تبارك وتعالى، آخذ في سبيل طاعته، سائر نهج مرضاته، فلا تهنوا أبدًا ولا تحزنوا أبدًا، وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم".

والحديث عن غزوة بدر في سورة الأنفال يؤيد هذا المعنى؛ حيث يقول في صدر السورة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ قُلْ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (1)﴾؛ فإصلاح

ذات البين وتوحيد الصف، ورفع النزاع والخصومة بين المؤمنين من أولى مقومات النصر ولوازمه، والتفرق والتنازع من أعظم مسببات الضعف والفشل.. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46)﴾ (الأنفال).

5- الثبات وذكر الله عند لقاء الأعداء

في الحديث عن غزوة بدر، والتعقيب عليها في سورة الأنفال يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45)﴾ (الأنفال).. أمر الله تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستغيثوا به ويتوكلوا عليه أن يثبت أقدامهم وأن ينصرهم على أعدائهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250)﴾ (البقرة)، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147)﴾ (آل عمران).

6- الشورى بين القائد الجند

وفي بدرٍ يُرسي رسولُ الله- صلى الله عليه وسلم- مبدأ الشورى؛ فيسمع من خباب وينزل على رأيه، وكذلك شاور أصحابه في أُحُد، ونزل على رأيهم ولم يتمسك برأيه، وأصابهم ما أصابهم، ومع ذلك ينزل القرآن الكريم ليثبت حق الشورى مهما كانت النتائج.. ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: من الآية 159).

7- استكشاف قوة الأعداء

وقد قام النبي- صلى الله عليه وسلم- باستكشاف قوة الأعداء بنفسه؛ حيث صحب أبا بكر، وتجوَّلا حول معسكر مكة، فوجدا شيخًا من العرب فسأله رسول الله- صلى الله عليه وسلم- عن قريش وعن محمد وأصحابه- سأل عن الجيشين زيادةً في التكتم- ولكن الشيخ قال لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال له رسول الله- صلى الله عليه وسلم- "إذا أخبرتنا أخبرناك"، قال: أو ذاك بذاك؟ قال: "نعم".. قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهو اليوم بمكان كذا وكذا- للمكان الذي به جيش المدينة- وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا- للمكان الذي به جيش مكة.

ولما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: "نحن من ماء"، ثم انصرف عنه وبقي الشيخ يتفوَّه، ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟!

ثم أرسل ثلاثة من قادة المهاجرين، علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص، في نفر من الصحابة إلى ماء بدر فوجدوا غلمانًا يستقون لجيش مكة، فألقوا عليهم القبض وجاءوا بهم والرسول- صلى الله عليه وسلم- يصلي، فقالوا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهم فضربوهم، فقالوا: نحن لأبي سفيان، ونحن في العير، فأمسكوا عنهم، فسلم رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وقال: "إن صدقوكم ضربتموهم وإذا كذبوكم تركتموهم؟!"، ثم أقبل عليهم يسألهم، فأخبروه أن قريشًا خلف هذا الكثيب وأنهم ينحرون يومًا عشرًا ويومًا تسعًا، وأعلموه بمن خرج من مكة، فقال- صلى الله عليه وسلم-: "القوم ما بين الألف والتسعمائة"، وقال: "هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها" (إمتاع الأسماع/ 77).

8- المسلم الصادق موصول بجند السماء

إن المسلم في مواجهته للباطل يحشد ما استطاع من قوة، ولا يدَّخر في ذلك وُسعًا، ثم هو بعد ذلك لا يرهب قوة الأعداء، وإن كانت تفوقه عددًا وعتادًا؛ لأنه على يقين من أنه ليس في الميدان وحده، وإنما معه جند الله الذي لا يعلمها إلا هو، وفي بدر يتجلى ذلك في مواقف عدة؛ حيث تنتصر القلة المؤمنة على الكثرة المشركة وذلك بفضل ما سخر الله للمسلمين من جند السماء والأرض والتي كان منها:

أ- الملائكة مدد من السماء: حين استغاث الرسول- صلى الله عليه وسلم- ومن معه من المؤمنين بربهم أمدهم بالملائكة: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9)﴾ (الأنفال)، والمتأمل يرى أن عدة الملائكة بعدة المشركين، وبذلك يتحقق ما أخبر به الله من البشرى والطمأنينة للمؤمنين: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (10)﴾ (الأنفال).

ب- النوم والمطر: قبل المعركة كان المسلمون في حالة من التعب والإعياء والخوف يحتاجون معها إلى قسط من الراحة قبل المواجهة، كما أن ساحة المعركة كانت في حاجة إلى تجهيز وإعداد بما يمكِّن المسلمين من

الحركة في الميدان وفي المقابل يعوق حركة المشركين؛ فأنزل الله عليهم النعاس والمطر.. ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمْ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ (11)﴾ (الأنفال).

يقول الماوردي: وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان:

أحدهما: أن قوَّاهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني: أن أمَّنهم بزوال الرعب من قلوبهم، كما يقال: الأمنُ مُنِيم، والخوف مُسْهِر (القرطبي: 7/ 237)، وعن علي- رضي الله عنه- قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتُنا وما فينا إلا نائمٌ إلا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يصلي تحت الشجرة حتى أصبح" (الدر المنثور: 3/ 310)، وعن عروة بن الزبير- رضي الله عنه- قال: بعث الله السماء وكان الوادي دهسًا، وأصاب رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وأصحابه منها ما لبَد الأرض ولم يمنعهم المسير، وأصاب قريشًا ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه (الدر المنثور: 3/ 311)، وروي أنهم كانوا على جنابة وظمأ، وأن الشيطان ألقى في قلوبهم الحزن، وقال: أتزعمون أن فيكم نبيًّا، وأنكم أولياء الله، وتصلون مجنبين محدثين؟! فأنزل الله من السماء ماءً فسال عليهم الوادي ماءً؛ فشرب المسلمون وتطهَّروا وثبت أقدامهم وذهبت وسوسته (الدر المنثور: 3/ 311).

ج- سلاح الرعب: إن سلاح الرعب من أقوى الأسلحة التي يتحقق بها الغلبة على الأعداء، وهذا السلاح إذا سرى في أقوى الجيوش وأعتاها، فإنه ينهار ولا يغني عنه لا عدد ولا عتاد، وهذا السلاح لا يملك خزائنه إلا من يقدر على الوصول إلى القلب الذي هو محلّ التثبيت والخوف والهلع، وتأمل قول رب القلوب: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12)﴾ (الأنفال).

ومن خصائص نبينا- صلى الله عليه وسلم- وخصائص الأمة الإسلامية النصر بالرعب مسيرة شهر؛ فعن جابر بن عبد الله أن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: "أعطيتُ خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة" (فتح الباري: 1/335/ 435).

إن الرعب سلاح يفتك بالمشركين والكافرين قبل المواجهة، قال الله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ (آل عمران: من الآية 151)، وفي حق يهود يقول: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ (الحشر: من الآية 2)، وفي حق الأحزاب: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ (الأحزاب: من الآية 26)؛ فسلاح الرعب سلاح ينفذ إلى أعماق القلوب، فيسلب من أصحابها العقلَ والحسَّ، ويجعلها في حالة من الذهول واللا وعي ﴿لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: من الآية 264).

9- من يحارب الإسلام إنما يحارب الله

إن الذين ينصبون لواء الحرب والعداء على الإسلام والمسلمين إنما يعلنون الحرب على الله، ومن يعلن الحرب على الله لن تقوم له قائمة مهما كان عدده وعتاده، والعجيب أن قريشًا كانت تعلم ذلك، وهذه الواقعة تؤكد ذلك؛ فحين مرت قريش على خفاف بن أيماء بن رحضة الغفاري أو أبيه بعث إليهم بجزائر (الذبائح) أهداها لهم، وقال: إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا؛ قال: فأرسلوا إليه مع ابنه: أن وصلتك رحم، قد قضيت الذي عليك، فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم، ولئن كنا إنما نقاتل الله- كما يزعم محمد- فما لأحد بالله من طاقة (سيرة ابن هشام: 2/ 192).

10- خطبة النبي- صلى الله عليه وسلم- يوم بدر ترسم طريق النصر

كل هذه المعاني السابقة وغيرها تجدها في خطبة النبي- صلى الله عليه وسلم- يوم بدر؛ حيث حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أما بعد: فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم عنه، فإن الله عظيم شأنه، يأمر بالحق ويحب الصدق، ويعطي على الخير أهله على منازلهم عنده، به يذكرون وبه يتفاضلون، وإنكم قد أصبحتم بمنزل الحق لا يقبل الله فيه أحد إلا ما ابتُغي به وجهه، وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهمَّ، وينجي به من الغَمِّ، وتدركون النجاة في الآخرة، فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شيء من أمركم يمقتكم عليه، فإن الله يقول: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ (غافر: من الآية 10).

انظروا الذي أمركم به من كتابه وأراكم من آياته، وأعزَّكم به بعد ذلة؛ فاستمسكوا به يرضى به ربكم عنكم، وأبلوا ربكم في هذه المواطن أمرًا تستوجبوا الذي وعدكم به من رحمته ومغفرته؛ فإن وعده حق، وقوله صدق، وعقابه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم، إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا وإليه المصير، يغفر الله لي وللمسلمين" (إمتاع الأسماع: 81).

11- صور إيمانية مشرقة

ا- مروءة ووفاء: نهى النبي- صلى الله عليه وسلم- عن قتل أبي البختري وفاءً لما قدم له من معروف وهو بمكة؛ لأنه كان كفَّ القوم عنه وهو بمكة، وكان لا يؤذيه ولا يبلغ عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض صحيفة المقاطعة، ولكن أبا البختري قُتل؛ حيث إن المجذر بن زياد لقيه في المعركة مع صاحب له يقاتلان سويًّا فقال المجذر: يا أبا البختري إن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قد نهانا عن قتلك، فقال: وزميلي؟! فقال: لا.. والله ما نحن بتاركي زميلك ما أمرنا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- إلا بك وحدك؛ فقال: لا والله إذن لأموتن أنا وهو جميعًا، لا تتحدث عني نساء مكة أني تركت زميلي حرصًا على الحياة؛ فقال أبو البختري حين نازله المجذر وأبى إلا القتال، يرتجز:

لن يُسلم ابن حرة زميله حتى يموت أو يرى سبيله

فاقتتلا، فقتله المجذر إلى قتله (سيرة ابن هشام: 2/ 197).

ب- قتل عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- خاله العاص بن هشام.

ج- أخوة الإيمان تعلو على أخوة النسب: بعد انتهاء المعركة مرَّ مصعب بن عمير بأخيه أبي عزيز وهو بيد أحد الأنصار فقال له: شدَّ يدك به؛ فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب: أهذه وصيتك بي؟ فقال مصعب: إنه أخي دونك.

فرابطة الإيمان أعلى الروابط وأبقاها، وتعلو على روابط الدم والنسب والأرض.

د- الوصية بالأسرى

يقول أبي عزيز: وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول- صلى الله عليه وسلم- إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، قال: فأستحيي فأردها على أحدهم، فيردها عليَّ ما يمسها (سيرة ابن هشام: 2/ 209 بتصرف).

ألا تسمع الدنيا بهذه الصورة الكريمة لمعاملة الأسرى في الإسلام، بعد ما سمعت ما كان وما يكون في سجن أبي غريب، وما كان في سجن جوانتانامو بل وفي سجون معظم دول العالم، وليس لأسرى، وإنما لأحرار أبرياء لم تثبت عليهم أي تهمة، ولم يحرموهم من حقوق الإنسان الذي كرمه الله بل حق الحياة المكفول للحيوان حرم السجين منه، ومنهم من قضى نحبه تحت التعذيب، ومنهم من ينتظر، وسمعت بهم الدنيا، وما تحركت أي قوة لفك قيدهم أو إطلاق سراحهم.

هـ- انقطع سيف عكاشة بن محصن فأتى النبي- صلى الله عليه وسلم- فأعطاه جذلاً من حطب، فقال: قاتل بهذا يا عكاشة، فلما هزَّه عاد سيفًا في يده طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله تعالى للمسلمين، وكان ذلك السيف يسمى "العون"، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد، حتى قتل في حروب الردة وهو عنده (الرحيق المختوم: 262).

و- روي أن عوف بن الحارث، وهو ابن عفراء قال: يا رسول الله، ما يضحك الرب (أي يرضيه غاية الرضا مع تبشير وإظهار كرامة) من عبده؟ قال: "غمسه يده في العدو حاسرًا"، فنزع درعًا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل (سيرة ابن هشام: 2/ 196).

12- المعركة بالأرقام

عدد المسلمين: 314

عدد المشركين: 1000 تقريبًا

شهداء المسلمين: 14

قتلى المشركين: 70 قتيلاً، و70 أسيرًا وعامتهم من القادة والزعماء والصناديد.

العتاد: المسلمون لم يكن معهم سوى فرسين.

المشركون: 100 فرس عليها مائة درع، سوى دروع في المشاة، و700 ناقة.

وبعد.. فهذا غيض من فيض ودرس من مدرسة بدر الكبرى التي يجب على المسلمين أن يقفوا أمامها وقفة إجلال وتقدير، لينظروا من خلالها إلى المعايير الإيمانية في مواجهة الحق مع الباطل، وكيف أن الفئة المؤمنة القليلة العدد والعتاد، والمستضعفة في الأرض كيف أنها حين أخلصت لربها، وتجردت لعقيدتها، وانخلعت من الأهواء والشهوات، فإن الله- عز وجل- أعزَّها، وسخَّر لها جنود السموات والأرض، فتحقق لها النصر الذي وعد الله به عباده في محكم التنزيل: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُم الْغَالِبُونَ (173)﴾ (الصافات).